الثقافة الإسلامية

حرب على العفاف

عمر بن محمد شفيق

لا يخفى على من له أدنى اطلاع على الأخبار المحلية والعالمية ما يمر على العفاف من الشدة والضيق، ولا يخفى عليه مقدار الجهد الذي تبذله بعض الحكومات والمؤسسات لمحاربة العفاف، وقد بلغت هذه المحاربة ذروتها في الأشهر والسنوات الماضية، حتى غدا العفاف غريبا بين الفسق والفجور.

وقد كان من أهم وسائل محاربة العفاف: منع الحجاب، والتضييق على المتحجبات في دور التعليم ومقر العمل وفي أماكن أخرى، تارة بدعوى معارضته للقيم العلمانية، وتارة باسم تمكين المرأة، وأخرى بزعم كونه خطرا على الأمن العام، وبغير ذلك من الأوهام التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

وهذا حرب على الفطرة القويمة قبل أن يكون حربا على أي شيء آخر، وحرب على العفة والحياء، وحرب على الأخلاق والقيم الاجتماعية، وموالاة لإبليس اللعين الحريص على تغيير الفطر، الذي قال: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ١١٩].

ومن حرصه على تغيير الفطر ومسخها أن سوّل لعصابة من الناس ممن يدعون التمدّن والتقدّم، وينتسبون إلى النهضة والحضارة، ويتظاهرون الرفعة والعلو؛ محاربة العفاف، وزين في نفوسهم الخلاعة والانحلال، وأوحى إليهم أنواع الشرور والفساد، التي لم تكن تعرف في غابر الأزمان.

وكان أكبر تركيزه وأغلب اهتمامه على تغيير فطرة العفاف، وذلك لعلمه بعظم قدره ومركزيته في الإسلام،

وتعلق كثير من الشرائع والعبادات به، كغض البصر، والحجاب، وتحريم الخلوة، ونهي المرأة عن الخضوع بالقول، والأمر بالنكاح، والنهي عن السفاح، وغير ذلك من الأوامر والنواهي، وكلها تنقرض بانقراض العفاف وتنعدم بانعدامه.

وليس العفاف شيء يزول جملة واحدة، بل يزول رويدا رويدا بالتدريج، ويمر في أثناء ذلك بمراحل شتى، ولا تزال شعبة من شعب العفاف وخصلة من خصاله تسقط وتضمحل حتى يختفي العفاف من الواقع، ولا يبقى له أثر في حياة الفرد أو سلوك المجتمع.

وقد اختفت ثقافة العفاف في العالم الغربي، واضطربت لديهم المعايير، حتى صاروا يرون حسنا ما ليس بالحسن، فكرهوا العفة والطهارة، ونشروا الفسق والخلاعة، وعمدوا إلى إلغاء الفرق بين النكاح والسفاح، وانعدمت معاني العفاف والحشمة من نفوسهم، وترسخت مفاهيم الفحش والنجاسة في قلوبهم، فصاروا ينشرون الرذائل ويحاربون الفضائل، ويقلبون الحقائق، ويسمون الأمور بغير مسمياتها، يسمون العري والفحش فنّا وجمالًا وذوقًا وتقدمًا، ويرون العفاف والستر عارًا ورجعية وتخلفًا.

بل إن الفساد قد بلغ مبلغًا لم يبلغ إليه في تاريخ البشرية أبدا، وأهينت المرأة إهانة لم تشهد البشرية إهانة للمرأة كهذه قط، لقد أصبحت حرفة البغاء تجارة دولية منظمة، ولم يعد من المتصور وجود إعلان بلا امرأة تجذب بمفاتنها عيون الناظرين، وقد صارت المرأة تعمل للرجال في أماكن شتى عمل المغناطيس، إن كان هذا وأمثاله إكرامًا للمرأة واحترامًا لها فليس في العالم إهانة للمرأة قط.

وقد تسربت آثار العالم الغربي إلى العالم الشرقي، وقد تولّى كبر نشر تلك الثقافة الشنيعة فيها المستغربون من الشرق، فقلّدوا الغرب في كل ما يقدرون عليه، بل وحملوا في سبيل ذلك أنواع المشقات، واستعانوا في نشر هذه الثقافة بالإعلام، ودنسوا المعاهد والكليات بالفسق والمجون، حتى انقرض منها الطهر والنقاء، وساعدهم

على ذلك ساداتهم من الغرب.

وقد نجحوا في مشروعهم البشع نجاحا لا يخفى على أحد، وتمكّنوا من فرض ثقافتهم على أكثر أهل الشرق، فصار الشباب والفتيات يحاكون الغرب في زيّهم ولباسهم، وراحوا يرتادون الملاهي والفنادق، وتأسروا في أغلال العبودية الفكرية، ولم ينج من كيدهم إلا من عصمه الله.

سلام على الأخلاق في الشرق كله
إذا ما استبيحت في الخدور الكرائم

هانت عليهم محارم الله فانتهكوها، وثبت في قلوبهم حبّ الشهوات فتعلقوا بها، كانت العفّة في حصن ومأمن فما زالوا بها حتى استبيحت، ولم يبق منها إلا النزر اليسير، ولا يزال هذا النزر اليسير يقلقهم ويزعجهم، فهم في محاولة دائمة للقضاء على ما تبقى منها، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

وتزداد أهمية العناية بالأولاد في مثل هذه الظروف والأحوال، وتتأكد مسؤولية تأديبهم وتربيتهم، وصيانتهم من مواقع الفتن، وحراستهم من الرذائل والتافهات والخسائس، وترسيخ الهوية الإسلامية والقيم الأخلاقية في نفوسهم، وتعزيز معاني الفطرة والعفاف في قلوبهم.

ولا ينبغي التهاون في شيء من ذلك، بل يتعين أن يكون هذا هو الواجب الأول والاهتمام الأكبر في حياة الوالدين، فقد تولت المعاهد والجامعات -ونحن على غرة- قيادة الحرب على العفاف، وتقلدت مسؤولية إفساد الأجيال، بمعاونة من الإدارات والحكومات، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

إن الإسلام دين الطهر والعفاف، لذا فإنه يحرم جميع الأمور التي تخدش العفاف، من السفور والتبرج والنظر والخضوع بالقول والخلوة ونحو ذلك،

حفظًا للأعراض، ومنعا لسبل الشيطان، وسدًا لأبواب الفساد، فكم في المحاجر من خناجر، وكم منها في القلوب من ندوب.

وربنا تبارك وتعالى قد بين لنا وسائل الحفاظ على العفاف، وجعل غض البصر من أهمها، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

وحذرنا من الشيطان الرجيم وكيده، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وتوعّد أهل الشر والفساد، الذين يحبون شيوع الفواحش والمنكرات، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وأمر النساء بالحجاب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]. فليس الحجاب أو النقاب عادة وتقليدا، بل هو عقيدة ودين، أجمعت عليه الأمة، ولم يخالف

في ذلك من علماء الأمة فرد.

فحذار حذار يا أختاه من التبرّج والسفور، وإياك والاغترار بشعارات الغرب الخداعة، وحضارتهم الزائفة، والزمي عفافك وحجابك، واعلمي أن الحجاب ليس قطعة قماش تستر به جسدك فحسب، بل هو فلسفة متكاملة، ومنظومة قيمية شاملة، يصون عزك وشرفك وعفافك، ويحميك من الذل والامتهان الذي يرجوه لك الغرب. واعلمي أنك لا تزالين في عبادة ما دمت في حجابك، وإن كنت خارجة للتنزه والسياحة.

صوني جمالك بالبراقع إنها
ستر الحسان ومظهر الحسنات

ولا يركز أعداء الإسلام على إفساد المرأة أكثر من غيرها، ويبذلون الجهود لخلع حجابها، إلا لأنها صانعة الأبطال، ومربية الأجيال، فاستشعري عظم مسؤوليتك تجاه نفسك وأولادك، وكوني لأولادك قدوة حسنة وأسوة طيبة، فأنت المدرسة الأولى لهم.

الأم مدرسة إذا أعددتَها
أعددتَ شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا
بالري أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى
شغلت مآثرهم مدى الآفاق

إن كرامة المرأة في أن تعبد ربها على بصيرة، لا أن تصير أداة للفتنة ووسيلة للإشهار، وكرامتها في العفاف والحجاب، لا في التعري وهتك ستر الحياء، ولا ينشر الغرب ثقافة التعرّي ويحارب ثقافة الحجاب إلا لكون الحجاب من أكبر العوائق أمام الهيمنة الغربية، وقد صدق أحد الباحثين حيث قال: إن الغرب لا يرى في المرأة المحجبة امرأة، وإنما يرى الإسلام يتحداه في عقر داره.

***